

المحاضرة الثالثة: مناهج البحث في علم نفس النمو

تعدد المناهج في علم نفس النمو كتعدددها في سائر العلوم الأخرى وبالطبع فإن المنهج الذي يتبعه الباحث عند القيام بدراسة ما يتوقف على السؤال الذي يريد الباحث الإجابة عنه والسؤال الجوهرى المطروح في علم نفس النمو والذي يهتم الباحث بالإجابة عنه: ما هي أهم التغيرات التي تطرأ على سلوك الفرد عبر مراحل العمر المختلفة؟

وللإجابة عن هذا السؤال يمكن للباحث أن يختار المنهج الطولي والمنهج المستعرض وهما الأكثر ملائمة والأكثر استعمالاً في مجال علم نفس النمو.

1- المنهج المستعرض: يعرف بأنه المنهج الذي يقوم فيه الباحث بمقارنة سلوك ما أو قدرة ما عند مجموعات عمرية مختلفة في نفس الوقت...مثلاً: إذا أراد أحد الباحثين دراسة التغيرات التي تطرأ على عملية التذكر اللفظي عند الأطفال في الفترة العمرية الممتدة من 4 إلى 8 سنوات وقرر الباحث أن يستخدم المنهج المستعرض، فيمكنه اختيار مجموعات من الأطفال تتألف الواحدة منها من 20 طفلاً في أربعة أعمار مختلفة وتكون كالتالي: من 4 إلى 5 سنوات، من 5 إلى 6 سنوات، من 6 إلى 7 سنوات، من 7 إلى 8 سنوات. ويقوم بتقديم أحد اختبارات التذكر اللفظي على هذه المجموعات الأربعة، ثم يقوم بمقارنة متوسطات أداء الأفراد عبر المجموعات العمرية للكشف عن مدى التغير الذي يطرأ على الذاكرة اللفظية للأطفال في هذه المرحلة من العمر.

ويستخدم المنهج المستعرض بكثرة في علم نفس النمو نظراً لقلّة تكاليفه، وسهولة الحصول على البيانات المطلوبة في فترة زمنية قصيرة، وتعتبر دراسات جون بياجيه ومن تبعوه من تلامذته مثلاً جيداً للدراسات المستعرضة حيث اهتمت كل منها بدراسة نمو التفكير وخصائصه عند الأطفال في أعمار زمنية متتابة، فدراسة الزمان والمكان والعدد تكون مناسبة للمنهج المستعرض.

كذلك عند قيامنا بدراسة التدهور الذي يطرأ على بعض القدرات عبر العمر لا تكون المناهج المستعرضة مناسبة وذلك لوجود أثر فعال للمتغيرات الثقافية والاجتماعية في نمو هذه القدرات، فقد أجري بعض الدراسات على تدهور الذكاء عبر العمر عند مجموعتين مختلفتين من الأشخاص المجموعة الأولى 50 سنة والمجموعة الثانية 70 سنة وكشف نتائج الدراسة على انخفاض أداء المجموعة الأكبر سناً وذلك قياساً بالمجموعة الأصغر ويتبع هذه المجموعتين لعدة سنوات توصل الدراسات إلا أن المجموعة الأصغر سناً عندما أصبح عمرها قريباً من 70 سنة لم يتدهور أدائها كثيراً...مقارنة بالمجموعة الأكبر سناً-لما كان في نفس السن.. – ويعزو الباحث مثل هذه النتائج إلى اختلاف الخبرات ونوع التعليم الذي تعرض له كل مجموعة على حدة.

2- المنهج الطولي: يعرف بأنه ذلك المنهج الذي يستخدمه الباحث لدراسة سلوك ما، وذلك بتتبع ارتقائه عند مجموعة واحدة من الأطفال عبر فترات زمنية متتابة. مثلاً: يمكن للباحث تتبع نمو اللغة عند الأطفال بتتبع ارتقاء هذا السلوك عند مجموعة واحدة من الأطفال في أعمار مختلفة (سنتين، ثلاث سنوات، أربع سنوات.....) وذلك بهدف الكشف عن

التغيرات التي تطرأ على هذا السلوك عبر مراحل العمر المختلفة وبمعنى آخر المقارنة في الدراسات الطولية تكون بين المجموعة ونفسها عبر فترات زمنية متتابعة.

ويمكن الحصول على البيانات المطلوبة في المناهج الطولية عبر أسلوبين هما:

أ- الأسلوب التتبعي: والذي يبدأ في سن معينة قد يكون من لحظة الميلاد أو عند تعرض الأطفال لحدث ما، ويقوم الباحث بتتبع اثر هذا الحدث على السلوك المراد قياسه ومن ثم فان الدراسة تكون تتبعية للأمام.

ب- الأسلوب الاسترجاعي: حيث لا يقوم الباحث بتتبع أفراد العينة محل الدراسة زمنياً للأمام، بل يحصل على البيانات المطلوبة بالعودة إلى الوراء، مثل فحص الملفات والوثائق الخاصة بأفراد العينة أو جمع البيانات من الأشخاص القريبين منهم.

متى نستخدم المناهج الطولية؟....يفضل عادة استخدام المناهج الطولية عن المناهج المستعرضة في البحوث نظراً لدقة النتائج التي يمكن الوصول إليها حيث تأخذ بعين الاعتبار الفروق داخل المجموعات والتي عادة ما تطمس في المناهج المستعرضة ومن ثم يمكن الكشف عن الفروق بين الفرد ونفسه عبر العمر، وعلى ذلك فان هذا المنهج يلائم دراسة بعض القضايا الهامة في نفس النمو، مثل ثبات سمة من سمات الشخصية عبر الزمن واثار الخبرات الأولية المبكرة على السلوك والشخصية فيما بعد، كذلك فان هذه المناهج تكون أكثر حساسية للتغيرات السريعة التي تطرأ على وظيفة ما عبر فترات قصيرة فمثلاً حدة البصر عند الأطفال الرضع تنمو بشكل سريع في العام الأول للطفل وتكون المناهج الطولية مناسبة للغاية في هذه الحالة حيث يستطيع الباحث خلال عام واحد تتبع مسار ارتفاع هذه القدرة داخل مجموعة واحدة من الأطفال والكشف عن كل التغيرات والفروق التي تطرأ من شهر لآخر بل من أسبوع لآخر وعلى الرغم من المزايا التي تتمتع بها المناهج الطولية إلا أن الباحثين يخشون استخدامها لأنها تستغرق فترة زمنية طويلة، وكذلك زيادة تكلفتها....الخ.

جدول يوضح اهم مزايا وعيوب المناهج الطولية والمستعرضة

1-المزايا:

المناهج الطولية	المناهج المستعرضة
1 -توفر الضبط والدقة	1-توفر الوق حيث تستغرق فترة زمنية قصيرة
2- لا تحتاج إلى مجموعات زمنية متكافئة لان المجموعة التجريبية تكون ضابطة لنفسها	2- يمكن أن يقوم بها باحث واحد
3- تأخذ في الاعتبار الفروق داخل المجموعة العمرية ونفسها عبر الزمن، وتحسب هذه الفروق على أنها فروق حقيقية	3- تعطي صورة عامة عن نمط الارتفاع في أسرع وق

ثانياً العيوب:

المناهج الطولية	المناهج المستعرضة
تستغرق فترة زمنية طويلة	تعطي تمثيلا تقريبا لعمليات النمو
أكثر رتلفة من الناحية الاقتصادية	لا توجد عناية بالفروق داخل كل المجموعة العمرية
فقدان بعض الحالات بسبب المرض...الموت...الخ	لا يعنى بالتغيرات الاجتماعية والثقافية عبر العمر

3- المناهج الطولية ذات الامتداد الزمني المحدود:

نظرا لوجود مزايا وعيوب لكل من المناهج الطولية والمستعرضة اتجه بعض الباحثين للدمج بين الطريقتين للاستفادة من مزايا كل منهما ويقوم الباحث في هذه الطريقة باختيار مجموعات من الأطفال في أعمار متقاربة ، ويتم عمل قياسات للسلوك المراد دراسته عبر فترات متكررة من الزمن فمثلا يمكننا اختيار مجموعتين: أحدهما في سن الثانية والأخرى في سن الرابعة. ثم نتبع المجموعة الأولى بالقياس في سن الثانية، والثانية والنصف ، والثالثة ، والثالثة والنصف والرابعة...وبالمثل نختبر المجموعة الأخرى عند سن أربع سنوات ، أربعة وستة أشهر ، خمس سنوات.... ستة سنوات ومن ثم تزودنا هاتان المجموعتان بالبيانات الطولية عن أداء الأطفال في كل هذه الفترات العمرية على الرغم من أن الدراسة لم تستغرق سوى سنتين فقط.